مع القائدين العلمَيْن والمعلِّميْن

الشهيد فرج الله الحلو ونقولا شاوي

استحضاري في هذا الكتاب علاقتي بالقائدين الشيوعيين فرج الله الحلو ونقولا شاوي يرمي إلى التذكير ببعض جوانب سيرة كل منهما وبعض الجوانب المتصلة بدور كل منهما في الحزب في مراحل مختلفة. أهمية هذا التذكير بهذين القائدين العلمين هي للقول بأن للحزب الشيوعي في تاريخه القديم دور مهم في تاريخ لبنان يرتبط بهذين الاسمين العلمين.

لقد أصدرت في عام ٢٠١٠ كتاباً بعنوان "الشيوعيون الأربعة الكبار في تاريخ لبنان الحديث". عرضت من خلال سير هؤلاء الشيوعيين الأربعة ما يشبه هذا التاريخ المجيد للحزب الشيوعي اللبناني المتصل بأسمائهم في الصواب وفي الخطأ. والأربعة هؤلاء هم أربعة أمناء عامين، من فؤاد الشمالي المؤسس إلى فرج الله الحلو ومنه إلى نقولا شاوي ثم جورج حاوي حتى المؤتمر السادس في عام ١٩٩٢. وإذ أشير إلى هذا الكتاب فلكي أدعو القارئ بعامة والقارئ الشيوعي واليساري بخاصة إلى قراءته بدقة.

هذا الكتاب يعفيني من الدخول في تفاصيل أساسية تتصل بسيرة كل من هؤلاء الأربعة. لكن ما أريد أن أتوقف عنده حول كل من الرفيقين فرج الله ونقولا إنما يتصل بعلاقتي بكل منهما وبدور كل منهما في إغناء شخصيتي الفكرية والسياسية وفي الدور الذي أوكل إليّ بمبادرة من كليهما في ظرفين سياسيين مختلفين.

لقد تعرفت إلى الرفيق فرج الله في عام ١٩٥٤ مرة في بيروت أولاً ثم في دمشق في منزل الأمين العام للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان خالد بكداش عندما انتخب في ذلك التاريخ نائباً عن دمشق بعد تحرر سوريا من الدكتاتوريات العسكرية. كنت في ذلك التاريخ قادماً من بودابست بتكليف من اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي للقيام بجولة في المنطقة تحضيراً للمؤتمر الذي كان سيعقده اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي في بكين في ربيع ذلك العام.

عرضت للرفيق فرج الله في اللقاء الأول في بيروت تفاصيل مهمتي فشجعني على العمل بمسؤولية تليق بكادر من الكوادر المسؤولة في مهمة وطنية وأممية. أما في اللقاء الثاني فقد كان الرفيق خالد إلى جانب الرفيق فرج الله. عرضت لهما المهمة ذاتها فشجعاني وأعطياني ثقتهما الغالية.

ثم مرت الأيام . وفي عام ١٩٥٧ التقيت بالرفيق فرج الله في منتجع سياحي في مدينة سوتشي على البحر الأسود. وكنت قد أنهيت مهمتي في العمل في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي وكان هو قد قام بتمثيل الحزب الشيوعي في المؤتمر الأول للأحزاب الشيوعية الذي عقد في موسكو. حدثته عندما التقينا في المنتجع عن السنوات الأربع التي أمضيتها في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي وعن بعض انطباعاتي عن العمل في تلك المنظمة وبعض انطباعاتي عما شهدته في البلدان الاشتراكية، المجيد منها وعناصر الخلل التي كانت بارزة وكنت حريصاً أن أقدمها له كما هي.

لكن ما هو أهم بالنسبة إليّ في علاقتي مع الرفيق فرج الله يتمثل في مرحلتين. الأولى عندما استدعاني بعد عودتي من بودابست في أواخر عام ١٩٥٧ لأكون إلى جانبه في هيئة تحرير جريدة النور التي كان يصدرها الحزب. ولا أنسى كيف كان يتعامل معي الرفيق فرج الله خلال تلك الأشهر الثلاثة من العمل في الجريدة. كان يمارس عليّ دور المعلم الحقيقي بتواضعه وفي قراءة ونقد عناصر الخلل في بعض مقالاتي ثم إرشادي إلى تصحيحها. وفي تلك الأشهر الثلاثة السابقة على الوحدة المصرية السورية اكتشفت عن قرب سمات القائد الحقيقي في شخص الرفيق فرج الله، سمات الإنسان الحقيقي الأنيس والأليف والمتواضع والعميق المعرفة في الشؤون الثقافية والسياسية والعقلاني والواقعي في قراءة الأحداث وفي التعامل معها.

أما المرحلة الثانية والأخيرة وكانت في بيروت في مطالع شهر كانون الثاني من عام ١٩٥٩ عندما استدعاني لكي أكون إلى جانبه في هيئة تحرير جريدة النداء التي كان قد اشترى امتيازها الحزب. وكان لي في الجريدة تعليق يومي على الأحداث العربية والعالمية. وكان الرفيق فرج الله كلما قرأ مقالاً من تلك المقالات التي أعجب بها يأتيني ليهنئني ويشجعني. في تلك المرحلة بالذات تعمقت علاقتي به وبكل ما يتصل بشخصيته وبتاريخه منذ أن انتسب إلى الحزب في مطالع ثلاثينات القرن الماضي حتى استشهاده في عام ١٩٥٩. ولن أنسى، وكيف لي أن أنسى، فاجعة اعتقاله في دمشق بعد يومين من آخر لقائي معه. والقصة صارت معروفة بتفاصيلها. وقد كلفت نفسي في الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي بإصدار كتاب ضمنته عدداً من المقالات البالغة الدلالة في مواضيعها وفي مواقفه الجريئة فيها التي تعبّر عن شخصيته. ووضعت للكتاب مقدمة عبّرت فيها عن تقديري له داعياً القراء الشيوعيين على وجه الخصوص لكي يقرأوه بإمعان ويتعلموا منه.

ذلك ما أردت أن أتوقف عنده في علاقتي التي أنا شديد الاعتزاز بها مع هذا القائد الشيوعي العلم والمعلم بالنسبة إليّ.

أما بالنسبة للرفيق نقولا شاوي فقصة علاقتي معه جاءت متأخرة. إذ كان هو في تلك الفترة يقيم في بوخارست ممثلاً للحزب في "الكومنفورم" المؤسسة الإعلامية الأممية التي حلّت محل "الكومنترن" الصيغة الأممية التي رافقت عهد ستالين وتمّ حلّها خلال الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٣. أذكر أن الرفيق نقولا قد زارني في بودابست في عام ١٩٥٦ بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي الذي كان من ضمن قراراته التاريخية حلّ مؤسسة "الكومنفورم". وكنت قد عرفت بعض التفاصيل المتصلة بتاريخ الرفيق نقولا التي تشير إلى السمات الخاصة بشخصيته وأهمها ثقافته الواسعة ومعرفته العميقة باللغة الفرنسية. أسعدني ذلك اللقاء الأول مع الرفيق نقولا. ورأيت أن أطلعه بالتفاصيل عما كان قد أصبح معروفاً للقاصي والداني عن تلك المرحلة المضطربة في دولة المجر الاشتراكية والنقاشات التي كانت قد بلغت ذروتها في المنتديات الثقافية والاعلامية التي شاركت في بعضها، وأعلنت للرفيق نقولا عن مخاوفي مما كانت تشير إليه تلك المرحلة المضطربة في المجر. وأذكر أنه سلّمني مجموعة من الوثائق الحزبية لكي أحتفظ بها إلى أن يطلب مني تسليمها للحزب. واستأذنته بالإطلاع عليها فلم يمانع. وفوجئت خلال قراءتي لبعض تلك الوثائق بما لم أكن أعرفه من بعض التفاصيل المؤلمة في حياة الحزب في النصف الثاني من أربعينات القرن الماضي والنصف الأول من الخمسينات.

كان ذلك اللقاء الأول مع الرفيق نقولا بداية مرحلة طويلة استمرت حتى آخر أيامه في مطالع عام ١٩٨٣. سأكتفي هنا بإشارة سريعة إلى الدور الحاسم الذي لعبه الرفيق نقولا بعد انفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري في عام ١٩٦٤ والتأسيس للحزب اللبناني في شروط جديدة بالكامل. وكان أول ما فاجأني به عندما استدعاني إلى لبنان من فيينا حيث كنت أمثّل حركات السلم العربية في قيادة مجلس السلم العالمي. كان ذلك في أواخر عام ١٩٦٤. وكلف في تلك المهمة الرفيق فاروق معصراني الذي كان يشارك في إحدى اجتماعات مجلس السلم العالمي. استدعاني يومها ليضمني إلى عضوية المكتب السياسي للحزب بصفة مرشح. إذ كان الرفيق نقولا في ذلك الحين مهموماً ومنشغلاً بإعادة صياغة قيادة الحزب في الشروط الجديدة التي تلت انفصاله عن الحزب السوري.

. وكانت تلك اللحظة بداية مرحلة جديدة مختلفة عن السابق في حياتي الحزبية. وأشهد أن الرفيق نقولا كان يتميّز بشخصية من نوع مختلف، شخصية قائد ومعلّم أولاً، ثمّ ما تميّز به عن كل من عرفتهم من قادة الأحزاب الشيوعية بجرأته في تقديم الكوادر إلى مواقع المسؤولية . وهذا ما برز بوضوح في عامي ١٩٦٥ و١٩٦٦ اللذين استمع فيهما لي ولرفاق آخرين وأخذ بآرائنا في تجديد وتوسيع كل من المكتب السياسي واللجنة المركزية في إدخال أعضاء جدد في كل الميادين إلى صفوفهما. واختارني أنا وجورج حاوي لنكون عضوين في سكرتاريا اللجنة المركزية بعد أن أصبحنا عضوين أصيلين في المكتب السياسي.

ولن أدخل في مزيد من التفاصيل المتصلة بعلاقتي بالرفيق نقولا قائداً حزبياً وسياسياً ومفكراً من الطراز الرفيع. غير أنني لا أستطيع إلا أن أتوقف عند اعتراف قدمه لي في إحدى لقاءاتنا الخاصة عن ثلاثة أخطاء ارتكبها في حياته كما وصفها هو لي. الخطأ الأول هو أنه قبل في عام ١٩٤٦ بالحلول محل الرفيق فرج الله برئاسة الحزب الشيوعي اللبناني بقرار تعسفي من قبل خالد بكداش. الخطأ الثاني هو أنه وقف إلى جانب خالد بكداش في القرار الذي اتخذه وألزم اللجنة المركزية به في عام ١٩٤٨ في إخراج فرج الله من كل مواقعه القيادية في الحزب لأنه اقترح عدم التسرع بالموافقة على قرار تقسيم فلسطين. أما الخطأ الثالث هو أنه صدّق ما قاله له سوسلوف وبونماريوف في عام ١٩٦٧ خلال أزمة الحزب ومعركة التجديد فيه من قبل الجيل الجديد في الحزب، عندما أعلموه بأن جورج حاوي كان عميلاً للمخابرات الأميركية وأنني أتحمل المسؤولية لكوني كنت شريكاً له في ثورة التجديد في الحزب التي اختلفنا فيها مع الحزب الشيوعي السوفياتي.

كان ذلك الاعتراف بتلك الأخطاء الثلاثة مصدر عذاب نفسي عند الرفيق نقولا. وكان في أعقاب المؤتمر الثاني للحزب، الذي عقد في صيف عام ١٩٦٨ والذي اتخذت فيه قرارات جريئة جديدة من نوعها عبّرت عما ترمي إليه ثورة التجديد في الحزب التي انطلقت في أواسط عام ١٩٦٦، كان شديد الرغبة في التخلي التدريجي عن موقعه في الأمانة العامة لأحد رموز الجيل الجديد. وظل يسعى إلى ذلك إلى أن انتزع في المؤتمر الرابع للحزب الذي عقد في عام ١٩٧٩ القرار بالتنحي عن موقعه لصالح الرفيق جورج حاوي. فانتخب المؤتمر الرفيق نقولا رئيساً للحزب مدى الحياة اعترافاً بالدور التاريخي الذي ارتبط باسمه. واستمرت علاقتي به على امتداد الأعوام اللاحقة مصرّاً عليه بأن يتفرغ لكتابة مذكراته. وبدأ بالفعل كتابة تلك المذكرات التي غادر الحياة قبل أن يستكملها. فأصدرناها بعد رحيله في كتاب اقتصر على البدايات في حياته الحزبية والأسس التي استند إليها

والتي جعلته ينتسب إلى الحزب بكثير من الإعتزاز. وكان للرفيق سليم خيّاطة دور مهم في مساعدة الرفيق نقولا في تلك المهمة كما يشير هو إلى ذلك.

وهكذا، وللأسباب الآنف ذكرها، استحضرت لنفسي وللقارئ الشيوعي وللقارئ بشكل عام هذين الاسمين العلمين في تاريخ حزبنا الشيوعي اللبناني.

وأستشهد هنا لمزيدٍ من المعرفة بهذين القائدين بنصٍّ لكلٍّ منهما:

النص الأول، هو مقال للشهيد فرج الله الحلو في جريدة "صوت الشعب" بتاريخ ١٩٤٧/٩/٧

تحت عنوان " بين الثقافة والسياسة": " لقد رحّب لبنان بانعقاد المؤتمر الثقافي العربي الأول في ربوعه، وعُدَّ ذلك تقديراً من رجال الفكر العربي لمكانته الفكرية والثقافية، ولما لأبنائه من أيادٍ بيضاء على الثقافة العربية واللغة العربية والفكر العربي.

غير أنّ هذا المؤتمر الذي عُقد ليكون في الدرجة الأولى مظاهرة للتعاون والتضامن بين رجال الفكر العربي، جرت وتجري فيه أشياء لا تنسجم مع الغاية التي عُقد من أجلها، ولا مع المصلحة العامة المتوخاة من ورائه ولسنا نريد هنا أن نشير إلى اختلاف بعض وجهات النظر حول بعض الأمور الثقافية والعلمية المعينة فطبيعي أن يقع اختلاف في الآراء في مؤتمر ثقافي واسع كهذا لا سيما وأنّه الأول من نوعه. ولكننا نريد أن نشير إلى أمر واحد ونشير إليه بأسف، وهو أنّ أحد أعضاء الوفد اللبناني قد عارض في إرسال برقية إلى الأمم المتحدة، أو إلى مجلس الأمن بتأييد قضية فلسطين وقضية مصر، وحجّة المندوب اللبناني أنّ المؤتمر ثقافي بحت، وتعرضه لمثل هذه الأشياء يخرجه عن غايته الرئيسية التي هي ثقافية، ولا دخل لها في السياسة.

الحق أنّه موقف مستغرب ومؤسف معاً. نحن من أنصار تنزيه الفكر والثقافة ومنع استغلالهما وتسخيرهما لأغراض حزبية أو سياسية.

ولكن ذلك يكون صحيحاً حين يعني أنّ المثقفين العرب لا يجوز مثلاً أن يقفوا إلى جانب حزب لبناني ضد حزب آخر أو حزب مصري ضد حزب آخر، خشية أن يكون بين المثقفين أنصار لكلا الحزبين، فيؤدي ذلك إلى انقسامهم.

وقد نتوسّع ونتساهل فنقبل مثلاً أن لا ينتصر المثقفون العرب لدولة عربية ضد دولة أخرى، حرصاً على دوام التضامن والاتحاد بين رجال الفكر العرب في كلتا الدولتين، رغم وجوب الاعتراف والجهر بتخطئة موقف الدولة الخاطئة الممثلة في المؤتمر.

أما امتناع المثقفين العرب عن نصرة دولة عربية ضد الاستعمار، فهذا هو الأمر الغريب عن الثقافة والفكر والروح اللبنانية على الإطلاق، بل هذا هو الأمر الذي يخرج بالمؤتمر عن هدف رئيسي عظيم من أهدافه، وهو تحرير الفكر العربي والثقافة العربية من القيود التي تكبلهما، ومن العقبات التي تعرقل تطورهما وتقدمهما واساع آفاقهما. وهل هناك قيد أو عقبة أشد وطأة على الثقافة والفكر من الاستعمار؟

ولا يستطيع مثقف واحد، ولا سيما إذا كان مؤرّخاً، أن لا يعترف بأنّ الاستعمار الأجنبي هو السبب الأول الأوحد في انتار الجهل ولأُميّة في الأقطار العربية وفي مصر بصورة خاصة لأنّ الاستعمار الذي يعانيه هذا القطر الشقيق هو أشد أنواع الاستعمار الذي عرفته البلاد العربية. فإذا كانت غاية المؤتمر الثقافي العربي حصر الثقافة والتضييق عليها ومنع انتشارها، فاالمندوب اللبناني إذاً على حق في رفضه تأييد قضية مصر وقضية فلسطين على الاستعمار الإنكايزي. أمّا إذا كانت غاية المؤتمر توسيع السبل لانتشار الثقافة ورفع مستواها، ومحاربة الأُميّة ورفع مكانة الفكر في المجتمعات العربية، فقد كان من واجب الوفد اللبناني كله، إذا كان حقاً يريد تمثيل لبنان المثقف الحقيقي، أن يكون أول مَنْ يؤيّد مصر وفلسطين والعراق وطرابلس الغرب وأفريقيا الشمالية وأندونيسيا وجميع الشعوب المستعمرة ضد الاستعمار.

لقد وقف كبار المثقفين العالميين في الحرب الأخيرة إلى جانب القوى الديمقراطية ضد الفاشستية باعتبارها أكبر الآفات التي تهدد الثقافة والفكر وكذلك أيّد معظم المثقفين اللبنانيين جبهة الحرية على جبهة الفاشستية، ونعتقد أنّ المثقف اللبناني الذي عارض تأييد المؤتمر الثقافي العربي لقضية مصر وفلسطين، كان أيضاً بين أولئك المثقفين اللبانيين الذين أيّدوا جبهة اليمقراطية على المحور.

فهل خرجت الثقافة والفكر في موقفهما ضد الفاشستية عن أغراضهما وأهدافهما، وهل يستطيع أحد أن يتهمهما بأنهما أصبحا مطية للسياسة؟

بل تصح هذه التهمة على المثقفين الذين ماشوا الفاشستية وساروا في ركابها، فهم الذين خانوا رسالة الثقافة وسخّروها لأغراض سياسية واستعمارية.

وبعد، ألم تكن وراء موقف المندوب اللبناني دوافع سياسية وعوامل سياسية حدت به إلى اتخاذ موقفه ذاك؟

ولكي نقرب المسألة إلى الأفهام لو كان هذا المؤتمر معقوداً في مصر، وكانت القضية المطروحة على مجلس الأمن قضية لبنان، وقام أحد أعضاء الوفد اللبناني أو غيره فاقترح إرسال برقية إلى الهيئة الدولية بتأييد قضية لبنان ضد الاستعمار أكان يمكن أن يكون في أعضاء الوفد اللبناني مَنْ يعارض ذلك بحجّة أنّ المؤتمر ثقافي بحت ولا يجوز إخراجه عن أهدافه؟

وماذا كان يكون موقف الوفد اللبناني لو قام أحد الصريين وعارض تأييد المؤتمر لقضية لبنان؟

لا شك أنّ كل لبناني كان سيعتب على ذلك المندوب، ومن حقه أن يعتب ولكان الوفد اللبناني أشد الوفود احتجاجاً ولكان جميع المثقفين العرب يشجبون موقف المندوب المصري.

نحن كلبنانيين يُعقد المؤتمر الثقافي العربي الأول تحت سمائنا، كنا نود أن يتخذ المؤتمر الثقافي اتجاهاً واضحاً صريحاً في تأييد قضايا الشعوب العربية الوطنية الاستقلالية، كقضايا الجلاء والاستقلال، وأن لا يكون في ذلك أي تحفُّظ لأنّ أقدس مهمات الثقافة هي النضال لأجل الحرية، حرية الأفراد وحرية الشعوب. والثقافة تنمو وتزدهر في هذ النضال. وكل محاولة لتحديد أهداف أخرى للثقافة، أهم من تحرير الأفراد والشعوب، ليست سوى سخافة، وسخافة خطرة تجب محاربتها".

النص الثاني هو لنقولا شاوي مأخوذ من المدخل الذي وضعه لسيرته التي لم يتمكّن من إكمالها، وهو بعنوان "تمهيد وتوضيح": "قبل البدء بهذه الرحلة في أصقاع الماضي، أود أن أطلع القارئ، بما يُتاح من البساطة والواقعية، على بعض خلفيات وملابسات ولادة، ثم تركيب وصياغة، هذا الكتاب...

شُغفت، أيام شبابي، بعد مرحلة الولع بقصص الجاسوسية والمغامرات البوليسية وأخبار الرحلات والاكتشافات الخارقة، بالروايات التاريخية وكتب السيرة والمذكّرات الشخصية لطوائف منوعة

من ظرفاء رجال السياسة ودُهاة الدبلوماسية وعباقرة الأدب والعلم والفن. كنت ألتهم، بنهم غريب، كل ما أعثر عليه في المكاتب أو يقع بين يدي من تلك الأسفار المحببة...

هذه الهواية في ملاحقة وتفضيل هذا النوع من التآليف، لا سيما المذكّرات، ما انفكت تلازمني إلى اليوم، وإن كانت قد ارتقت، جوهراً واتجاهاً، وباتت أكثر عقلانية وانتقائية.

والمذكرات، بالمعنى الدقيق للكلمة، تقليد قديم، كان ولا يزال شائعاً، في بلاد الغرب والشرق على السواء، بين رجال الفكر وشيوخ الأدب وأقطاب السياسة والدبلوماسية. يدأب فيها هؤلاء على جمع وتكديس أبرز ما يقع في عصرهم من أحداث، في دفاتر أو مفكرات شخصية، تمتلئ صفحاتها وتغتني مع السنين، فتصبح، في نهاية المطاف، مرجعاً غزير المادة، يعودون إليه حين يجدون بعد عمر طويل، أنّ ثمة فائدة في نشر حصيلتها أو مقتطفات منها على الملأ.

هذا اللون من الأدب الواقعي يتناول، عادة، سِيَر الحياة وينفذ من خلالها إلى كواليس ومطابخ الأحداث الكبرى، الدولية والداخلية، يكشف خفايا الصراعات الحاسمة وخلفيات مواقف الفئات والقوى الاجتماعية المتناحرة في هذا البلد أو ذاك. فلا عجب أن تتميّز هذه الكتابات، رغم كل ما يشوبها غالباً من انفلاشات مزاجية، بالطرافة والخبث الناعم، وأن تبزّ في بعض جوانبها، بل أن تكمّل وتضيء زوايا الظل في تعاريج التاريخ الكلاسيكي، الوقور. ذلك أنّها تجمع، إلى الوقائع الحسيّة، النابضة بالحياة والحركة، بعض الخيال، وتسبغ عليها روح الظُّرف والنكتة. إنّها، ولا شك، جذابة وممتعة ومشوّقة. وإن كان فرسانها يتعاملون في كثير من الأحيان، مع الأحداث والأشخاص، بشيء من الخفّة والذاتية، تحت ستار الدعابة والتفكهة. لكن فضلهم كبير، على كل حال، لأنّك تجد في اعترافاتهم، في ذكرياتهم، اكثير الكثير من الشواهد والوثائق اتي لا تعثر عليها دائماً في أسفار المؤرّخين المتخصصين.

قد يتبادر إلى ذهن القارئ، بعد هذا الاستهلال المشوّق في الحديث عن المذكّرات، أني أعددت، أنا الآخر، طبقاً من هذا الزّاد الشهيّ المختار، من صنعي. وقد يظنّ أني سأقدّم في هذه الصفحات عصارة ما دوّنته وخزّنته من مذكّراتي، أسوة بأولئك الكتّاب أو رجال السياسة... في حين أني بعيد جداً عن هذا الطموح! لسبب بسيط، هو أني لم أسجّل في أية مرحلة من مراحل حياتي ما يشبه "اليوميات" أو "الشهريات" أو حتى "الحوليات"... وما أفاضني في الكلام عنها، وتغزُّلي بها، إلى حدٍ ما، سوى رجعة حنين لصدى من أصداء الماضي البعيد يمكن أن يكون عنوانه "ألا ليت الشباب يعود يوماً"، أو ضرب من وقفات الأسى والتحسُّر التي تواجه أحدنا حين يفوته القطار أو...

الطائرة وتضيع عليه فرصة لا تعوّض، أو يُستفز للنزول إلى الحلبة ويكون خالي الوفاض من الزّاد والسلاح...

لا أكتم أنّ قصتي مع هذا الكتاب غريبة، عويصة بعض الشيء! إنها ضرب من المجازفة أو المغامرة، أحمل نفسي على القيام بها، دون اقتناع جازم بإمكان تحقيقها، كما ينبغي...

وخلاصة هذه القصة أنّ لفيفاً من أعزّ الرفاق عليّ وأقربهم إلى قلبي شرعوا، منذ فترة، يطرحون علي، بلطف مقرون بالإلحاح، سؤالاً فيه إيحاء وتمنّي:" ألا تفكّر بكتابة مذكّراتك؟": فكنت أقدّم الأعذار وأكرّرها مرّة بعد مرّة، إلى أن صرت، كلّما "داهمني" أحدهم بالسؤال إياه، أشعر بالحرج.. ثم رحت، شيئاً فشيئاً، بيني وبين نفسي، أتفحّص هذا الحرج.

كانت خشيتي أن يسفر الجهد الذي قد أبذله، في كتابة ما يفترض أن يكون "مذكّراتي" ، عن عموميات لا طعم لها ولا لون. كنت أتهيّب الخوض في الموضوع وأستصعب النجاح في إتمامه. ثم رأيتني مسترسلاً، بعفوية، إلى التفكير فيه بين فترة وأخرى، وشرعت أفتح حوارات صريحة، مع نفسي، حوله...

كنتُ أستعرض حقبة من الماضي البعيد، وأتوقف عند إحدى حلقاتها، وأستحث الذاكرة لاستطلاع ما جرى لي أو حولي فيها. فتبرز الثغرات وتتشابك الأمور. ثم أعيد الكرة محاولاً الإمساك بأطراف الأحداث الكبرى كمحطات للتوجه والتدقيق فيما جرى قبلها أو بعدها من أمور أقل أهمية اطلعت عليها من بعيد أو شهدتها عن كثب وفهمت بهذا القدر أو ذاك شيئاً من تفاصيلها... فيهدر المحرك قليلاً، ثم لا يلبث أن يتوقف... فأقفز إلى حلقة أخرى، لعلّي أكون فيها أوفر حظاً وأكثر توفيقاً...

على أنّ المسلّي والمفيد في الأمر، هو أني بعد كل جولة من جولات التأمل والتفكير هذه، كنت أُركّب في ذهني هيكلاً، لا يخلو من تشويش، أضمنه شيئاً من حصيلة الجهد وأثبته على الورق لأعود إليه فيما بعد. وفي كل مرّة، كنتُ أنحي باللائمة على نفسي لإهمالي، في ذلك الزمن السالف، جمع نذر ولو يسير من المؤشرات التي تسند الذاكرة وتريحها في المستقبل. وأكرر، بصيغٍ شتى، طرح هذا السؤال الساذج، المشوب بالحسرة، على نفسي: "لماذا لم تنكب، ولو لماماً، يا هذا، في تلك الأيام، على طرق باب هذا اللون الجذاب من الأدب الإنساني، ولم تعكف على تسجيل ولو قطرات

من ذكرياتك وخواطرك... مع العلم أنّك كنت من المفتونين به، تكاد مطالعاتك تقتصر بغالبيتها عليه؟"...

فيأتي الجواب متردّداً، متثاقلاً: "هل نسيت أنّ الطالب الناشئ الذي كنته لخمسين عاماً خلت، العائش مع خياله بعيداً عن هموم الدنيا وتعقيداتها، لم يكن ليخطر له ببال حينذاك – وهو في بلدته المحافظة المنطوية على نفسها – أنّ في حياته الساكنة الآمنة ما يستحق التدوين والحفظ، قبل أن تتبدّل وتمتلئ ويعصف فيها ذلك الإعصار، فيتحوّل بسببه كل مجراها؟"...

ولئن اعترضت على هذا الكلام بالقول: "إنّ المقصود، بالضبط، هو المرحلة التالية، المرحلة التي جرفك فيها ما تدعوه بالإعصار واجتذبك إلى الحياة السياسية المفعمة بالحركة والنشاط والتفكير"... يأتي جواب آخر أهدأ وأوضح وأكثر دقة: "وهل غاب عن بالك أن تعاطيَّ السياسة في سنّ الشباب، لا سيما بعد تركي طربلس ومجيئي إلى بيروت، وبعد انتمائي إلى الحزب الشيوعي، في مطلع الثلاثينات، لم يكن ضرباً من الهواية الأدبية التي تتيح لصاحبها تمضية الساعات في تسويد صفحات مفكرة، بقدر ما كان تعاملاً معقداً مع البشر، مع سواد الناس، ونقاشاً وتخطيطاً مع أعداد منهم، في جريٍ وسعيٍ، وفي لقاءات منهكة وسهرات طويلة، وتفكيراً بما يجب أن تكتب وتنشر – لا للتاريخ والحفظ –، بل لتعطي فوراً جمهور شعبك المعذب المقهور تفسيراً لسبب شقائه، وتوجيهاً لما ينبغي أن يفعل لصدّ هذا القهر ومقاومته... ناهيك أنّ الحزب الشيوعي، العميق السرية في تنظيمه يومذاك – ولا أقول هذا للإثارة – لم يكن ليستسيغ انكباب عضو من أعضائه أو حتى من مسؤوليه، مهما تجلّت فيه المواهب الأدبية، على تسجيل يومياته وفيها ما فيها من المعلومات عن نشاطه ونشاط من حوله، تكون عرضة في كل وقت للوقوع في أيدي رجال الأمن أثناء مداهمة بيت سري يقيم فيه أو يتردد عليه!"...

وهكذا دواليك، نقاش سجال، لم يظفر فيه أحدنا بالغلبة على الآخر. لكنّه، على كل حال، ساعد في تشغيل الذاكرة وتمرينها، وهي بيت القصيد. وأتاح فتح خزانتها أول الأمر، ثم بعض أدراجها، فبدت المحاولة – محاولة اللجوء إليها واستنطاقها – حريّة بأن تبحث بعمق وبصورة عملية. فاستقويت، واشتدت عزيمتي، وعمّني بعض الارتياح. ووجدتني أخاطب نفسي مرّة أخيرة، بصفاء وطلاقة: "يا رجل، أنت شاهد ومساهم في مسيرة نضالية مجيدة، شقّت طريقها بدأب ومثابرة، وفعلت فعلها بصدق وأمانة، في جميع ساحات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا البلد... وكان أفرادها، عند الانطلاق، لا يتجاوزون العشرات. فأصبحت اليوم، بعد نصف قرن ونيف من الزمن،

جيشاً فوّاراً من المناضلين الأشداء، يعدّ بالألوف، متواجداً بقوة وراكضاً كالطود في أربع بقاع هذا الوطن... أفلا تبذل الجهد لتروي ما لديك من ذكريات عن تلك الطريق الشاقة الوعرة، والنيّرة معاً، التي اجتازنها هذه المسيرة؟".

تلك كانت الخطوط الرئيسية للحوار.. انتقلت بعدها إلى التفكير بالشكل، بالهيكلية العامة، بالصيغة. استعرضتها ملياً وتساءلت: هل أصطنع اصطناعاً تجميع بعض الأحداث السالفة وأعلّق عليها وأسبغ على هذا الخليط الشوش صفة المذكّرات؟ أم أنثر، على الورق، شذرات متقطعة مما لا يزال عالقاً في ذهني من وقائع الماضي، وأكتفي بهذا "الإنجاز"؟ ولئن فعلت، فهل يكون في ذلك كبير فائدة؟ أم أسعى، بكل بساطة، إلى عرض مسيرة حياتي، في سياق متسلسل، بكل ما تخلّلها من مشاكل حلوة أو مرّة، وما اكتنفها من صعاب ووعار، وما رافقها من أحداث وتقلبات مصيرية مرّ بها وطننا العربي الشاسع منذ عقود بعيدة؟

توقفت طويلاً عند هذا المخرج. فوجدته معقولاً. لكني رأيت أنّه يحتاج إلى إطار أوسع وأشمل، يكون بمثابة الوعاء التاريخي الذي تندرج فيه مسيرتي الذاتية، بحيث يستوعب هذا الوعاء المسيرة الأرحب، مسيرة وطننا وعالمنا العربي بأبعاده الزمنية القريبة، لا سيما في القرن الراهن. وذلك بالاعتماد، لا على ذكريات أو مذكّرات، بل على أحداث الوقائع والوثائق التاريخية التي أصبحت الآن في متناول الجميع... وظننتني، بعد إمعانٍ، وجدت الحلّ، وجدت الصيغة. فعكفت على رسم المخطط. فإذا بي أُفاجأ بأنّ عليّ أن ألبس لبوس المؤرخ، وأن أتمرّس بهذه "الحرفة" الرفيعة، بهذا العلم الدقيق الذي له أصوله وقوانينه الصارمة، لكي لا يكون في عملي لا تزيين ولا تشويه لواقع معروفف مرّت عليه الأقلام بلشرح والتوثيق مرّات لا تُحصى. فقبلت التحدي، وشرعت في التحضير، والتنقيب، ثم في الكتابة...

وقد سلكت النهج الذي بدا لي الأفضل، طامحاً إلى الأخذ بأسلوب بعيد عن التعقيد يجمع بين الواقعية الأدبية والتحليل السياسي المبسط، مقتطفاً من الوقائع التاريخية أكثرها دلالة وأعمقها تأثيراً في تطور الأحداث، وجاهداً إلى تقديمها بشكل روائي واضح وجذاب، وبأمانة كليّة، بالاستناد إلى أدق الشواهد والوثائق: مع العلم أنّ الدقة – بله الأمانة – في هذا المجال، نسبية جداً، لأنّ صفة الإطلاق لا تنطبق، ولم تنطبق يوماً، على رواية التاريخ، لا ماضياً ولا حاضراً...أضيف إلى هذا، أنّه لم يكن في يدي حيلة، أثناء جولاتي المتمادية في بستان التاريخ، تاريخنا بخاصة، إلاّ أن أتوقف

مطولاً، أحياناً، عند بعض الأزهار أو الأشواك، التي أبهجت أو آلمت شعبنا، أو التي أنعشت أو عثّرت قضاياه، لتحليل شيء من أسبابها وتفسيرها قدر الإمكان...

كلمة أخيرة. آمل أن يغفر لي القراء، لا سيما المؤرخون المتخصصون، قلّة مراعاتي بعض القواعد المتعارف عليها في كتابة التاريخ، ومنها ذكر المراجع – بحذافيرها الكاملة – في أسفل كل صفحة. لقد اكتفيت بإيراد لائحة بهذه المراجع في نهاية الكتاب[1]، أسوة بالعديد من السياسيين أو الأباء الذين يتدّون على "الكار" ولا يجيدون احترام أساليب التدقيق والتوثيق "المقدسة" فيما يوردون أو يستوحون من نصوص.

لكل الأسباب التي ذكرت وشرحت، لا يسعني أن أسمّي هذه الصفحات "مذكّرات"، إنْ هي إلاّ ذكريات ولمحات صادقة وأمينة من سيرة مناضل أمضى شبابه وكهولته في صفوف الحزب الشيوعي، الحزب الذي استهواه وملأ قلبه وعقله منذ صباه... ولا يزال!

---

[1] لم نعثر على هذه اللائحة. ومن الطبيعي أن لا يكون المؤلّف قد وضعها أصلاً. فهو لم ينهِ كتابه. وصل به إلى المرحلة الحاسمة من حياته، وغاب. فلا بد _ لاحقاً _ من القيام بتحقيق تأريخي للتوصل إلى عناوين العديد من المصادر التي رجع إليها الكاتب، وبالتالي وضع لائحة تقريبية بهذه المراجع.